سردية الجنائز وثنائية المرجع– دراسة إنشائية: في رواية سقف القرية، قاع المدينة

أ.مشارك. فهد مرسي محمد البقميّ
جامعة بيشة / المملكة العربية السعودية
fahadaltarive@gmail.com

الملخص

تتناول الدراسة سردية الجنائز وثنائية المرجع عند الكاتب والروائي عبد الله محمد الغامدي في روايته الموسومة بـ(سقف القرية، قاع المدينة)، وهي رواية تقترب من الواقع التسجيلي لحقبة تاريخية مضت في مجتمع من مجتمعات المملكة العربية السعودية، والرواية تركز على الثنائيات بدرجة كبيرة، مثل: ثنائية القرية والمدينة، والموت والحياة، والروح والمادة، وتلك الثنائيات تقيس التناقضات التي تطرأ على الإنسان بفعل التحول والتغير بناء على المرجع الذي يؤرخ له الكاتب بتطور المدن والقرى، وطغيان الجانب المادي على الروحي، بالإضافة إلى فلسفة الموت ونهاية الإنسان، والكاتب يعتمد في سرديته على الجانب الذهني ومخاطبة العقل في تفسير أحداث الرواية.

الكلمات المفتاحية: السرد – محمد عبد الله الغامدي– الثنائيات– المرجع– الجنائز.

Abstract

The study examines the narrative of funerals and the duality of reference in Abdullah Muhammad Alghamdi's novel "The Roof of the Village, the Bottom of the City." This novel delves into the documentary reality of a historical era in Saudi Arabian society, focusing on dualities like village versus city, life versus death, and spirit versus matter. These dualities highlight the contradictions arising from transformation and change, with the writer tracing these changes through the development of cities and villages. Additionally, the novel explores the dominance of the material over the spiritual and the philosophy of death. Alghamdi employs a narrative that emphasises the mental aspect and addresses the reader's intellect in interpreting the events of the novel.

Keywords: narration, Abdullah Muhammad Alghamdi, dualities, reference, funerals**.**

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم أمَّا بعد،

فتعد الرواية من أكثر الفنون الأدبية تجسيدًا للواقع؛ لأنها ترصد في مجالها السردي أبرز التحولات التي تمر بها المجتمعات في الواقع المعيش، ويتعالق فيها الأدب بالواقع، ويتبادل فيها المؤلف والمتلقي الدور في تأويل الخطاب وسد فراغاته؛ لأن الأدب يتجدد بتجدد القارئ زمانيًا ومكانيًا عبر تعاقب العصور عليه.

ومن الروايات التي جسدت الواقع المعيش في جنوب المملكة العربية السعودية، رواية: "سقف القرية، قاع المدينة" لمحمد عبد الله الغامدي، إذ يتداخل في الرواية ما هو ذاتي، وما هو موضوعي لمجتمع الكاتب، فيسرد بذلك خطابه النثري ضمن ثنائيات ضدية مثلت المرجع للقضايا التي تناولتها الرواية بشكل رئيس؛ لأن الرواية تنطلق من تتبع تاريخي لمجتمع مخصوص ضمن سياق تاريخي مليء بالتناقضات والتحولات في مدة زمنية مضت، ولهذا آثر الباحث أن يكون عنوان دراسته بـ"**سردية الجنائز وثنائية المرجع: دراسة إنشائية في رواية: سقف القرية، قاع المدينة**"، وهذه الدراسة تعد الأولى – على حد اطلاع الباحث– عن الرواية كونها حديثة الإصدار في (٢٠٢٣م) بالنسبة لزمن كتابة البحث الحالي.

وكان من أبرز **الأسباب** لدراسة العنوان السابق: تحليل الثنائيات الضدية التي شكلت المرجع للكاتب ثقافيًا واجتماعيًا. والتفاعل بين الذاتي والموضوعي في الكتابة السردية، وهو ما يظهر من عنوان الرواية، والذي يعكس الخلفية الثقافية والاجتماعية والتاريخية بين الذات والمحيط الأدبي. إضافة إلى تحليل العوامل الثقافية والتاريخية في الأدب السعودي المعاصر؛ لأنه يؤدي إلى فهم أعمق لطبيعة الأدب وخصوصا فيما يتعلق بالمناطق الجنوبية في المملكة العربية السعودية.

تكمن **أهمية** الدراسة في أنها تقدم تفكيكًا للأبعاد: الثقافية والاجتماعية والتاريخية المتشابكة في الرواية، مما يساعد على فهم العوامل التي شكلت السرد وأثرت فيه. كما تسلط الضوء على كيفية تعامل الكاتب مع الموضوعات الثقافية والاجتماعية والأنثروبولوجية، وكيف تمَّ تجسيدها من خلال السرد، مما أسهم في إثراء الدراسات الأدبية والثقافية حول المملكة العربية السعودية، ويفتح المجال لفهم أعمق للتفاعل بين الأدب والواقع في المنطقة.

أما **الأسئلة** التي تركز عليها الدراسة، فيمكن تلخيصها فيما:

١. ما الثنائيات الضدية التي يستعرضها الكاتب في الرواية؟ وكيف شكلت مرجعياته في النص المكتوب عن الجنائز؟
٢. كيف يتداخل العنصر الذاتي والموضوعي في السردية، وكيف يؤثر ذلك على هيكل الرواية ومضمونها؟

٣. كيف يعكس السرد التحولات الاجتماعية والثقافية في جنوب المملكة، وما دور الرواية في تسليط الضوء عليها؟

٤. ما دور العوامل الثقافية والتاريخية في تشكيل السرد وموضوعات الرواية؟

٥. كيف تفاعل القارئ مع النص الروائي؟ وكيف يمكن تفسيره وتحليله عبر سردية الرواية؟

تلك الأسئلة، وما يمكن أن يطرأ على الدراسة من تساؤلات ستظل تحت عناية الباحث بناء على **تقسيم الدراسة**، والذي جاء في **مقدمة، وتمهيد:** شمل التعريف بالراوي وروايته، وكذلك التعريف بالسرد، في حين ارتضت الدراسة ثلاثة مباحث، رُتِّبت على النحو التالي:

المبحث الأول: ثنائية القرية والمدينة.

والمبحث الثاني: ثنائية الموت والحياة.

والمبحث الثالث: ثنائية الروح والمادة.

وهذا لا يعني خلو الدراسة من ثنائيات أخرى في الراوية، إلا أنها كانت الأبرز من وجهة نظر الباحث. وقد ختمت الدراسة بأهم **النتائج** التي توصلت إليها الدراسة، بالإضافة إلى ثبت **بالمصادر والمراجع** التي اعتمد عليها الباحث في دراسته.

التمهيد:

أولًا: التعريف بالرواية:

تعد رواية "سقف القرية،قاع المدينة" من الروايات السعودية متوسطة الحجم، حيث بلغ عدد صفحاتها الثماني والسبعين صفحة، صدرت في عام (٢٠٢٣م) بالتشارك بين (النادي الأدبي الثقافي في منطقة الباحة)، و (دار الانتشار) في بيروت، للروائي محمد بن عبد الله الغامدي.

قسَّم الكاتبُ الرواية إلى ثلاثة مقاطع عنونها بـ: (١) – (٢) – (٣). جاء المقطع الأول (١) في ثماني عشر صفحة، وكان المقطع الثاني (٢) في خمس عشر صفحة، أما المقطع الثالث والأخير (٣) فجاء في أربع وثلاثين صفحة، ويلاحظ تقارب المقطعين الأول والثاني من حيث الحجم، واختلاف المقطع الثالث عن سَابِقيه، هذا من الناحية الشكلية والكمية للرواية.

وقد شكلت الجنائز نقطة الإشعاع لجميع مقاطع الرواية الثلاثة موضوعًا رئيسًا عند الكاتب، وإن اختلفت الشخصيات الجنائزية عند الكاتب في الزمان والمكان والجنس، إلا أنها شكلت السردية الكبرى عنده، وقد أشار الكاتب في مفتتح المقطع الأول إلى هذا الاتكاء المقصود عندما قال: "**مررت في حياتي بثلاث جنائز أتذكرها جيدًا، والموت نهاية الأشياء الحيَّة**"[(١)]، ما يعني أن الكاتب يعول على الذاكرة في سرديته الحكائية عن حالة الموت المتمثلة في حالة الغياب لجنائزه الثلاث، والتي كوَّنت رابطًا موضوعيًا للرواية.

(١) الغامدي، محمد عبدالله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ط١، دار الانتشار العربي/ النادي الأدبي الثقافي الأدبي بمنطقة الباحة، بيروت/ الباحة، ٢٠٢٣م، ص٩.

- **الجنازة الأولى(١):** كانت لجدة الكاتب وهو في سن الصغر، حيث البساطة في القرية والترابط والتلاحم بين أفراد المجتمع رجالًا ونساء، وسرد المؤلف علاقته الحميمية بالجدَّة موضحًا طبيعة العادات والتقاليد الأنثروبولوجية للمجتمع القروي؛ حيث شكَّل المكان القروي أيقونة التجلِّي والتميز للإنسان فوقع بذلك التوافق والتطابق بين أفراد المجتمع الواحد، إلى أن يصل الكاتب إلى موت الجدة، وكيف تلقى خبر موت جدته هو ومجتمع قريته، ساردًا بعد ذلك طقوس الجنازة من المنزل إلى القبر حتى مراسم العزاء.
- **الجنازة الثانية(٢):** تبرز المدينة (جدة) كمكان لتحضير الجنازة الثانية لعم الكاتب الذي يرقد في المستشفى، حيث كان الكاتبُ بجوار عمّه في أحاديث جانبية سرد فيها الكاتب التحولات الكبرى التي مرت بها المملكة العربية السعودية، وتحول الإنسان معها بما يحمله من قيم وأعراف وعادات مجتمعية، ويعقد الكاتب مقارنات ثنائية قائمة على الضدية، مثل: أوجه الخلاف بين أهالي القرية وأهالي المدينة، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وحال الإنسان في الفقر والغنى، ودخول الصحوة وبعض رجالاتها تحت مسمى الدين، معرجًا على دور الإعلام في المملكة العربية السعودية وخارجها، وكيف كان، وكيف تحوَّل وتغيَّر من نشر المسلسلات والحفلات الغنائيَّة إلى حجبها عن البث وتحريمها، والكاتب يسرد تاريخيًا أبرز التحولات التي طرأت على المجتمعات العربية والسعودية على وجه الخصوص معليًا من قيمة الارتداد بالذاكرة إلى القرية حيث تظهر قدسيَّة المكان، وفي المقابل يُقلِّلُ الكاتب من قيمة المدينة؛ لأنها من وجهة نظره أجبرت الإنسان على التحول والتغير على كافة الأصعدة من الناحية السلبية.
- **الجنازة الثالثة (٣):** كانت لأبي سعد، وهو ينتمي إلى مجتمع القرية، وعاش نهاية حياته في مدينة (جدة)، وفي هذه الجنازة يستمر الكاتب على تكريس الثنائيات الضدية السابقة للمكان من حيث القرية والمدينة، والغنى والفقر خصوصًا أن الجنازة الثالثة كانت غنية وتركت أموالًا طائلة لورثته، وقد أدى هذا إلى الكشف عن حالة الورثة، وحال أهالي القرية وما بدر منهم نحو الورثة؛ حيث ظهرت حالة الطمع والجشع لأهالي القرية؛ لوجود المادة، والكاتب يشير في ذلك إلى انهيار منظومة القيم والمبادئ الإنسانية في المجتمع القروي، وهو ما أصاب السارد/ الراوي العليم بخيبة أمل عندما يكتشف تحول مجتمع القرية عبر نواياه الطامعة في الحصول على المال من الورثة، وقد كشف عن هذه النوايا باستخدام تقنية الحوار الخارجي والمونولوج الداخلي دون تدخل المؤلف على نحو لم يسبق في الجنازتين: الأولى والثانية.

هذا في المجمل ما تتحدث عنه الرواية، وستفصل مباحث الدراسة القول فيه من حيث التحليل في سردية الجنائز وثنائياتها الضدية من حيث المرجع والقضايا.

ثانيًا: التعريف بالروائي:

هو محمد بن عبد الله الغامدي، من مواليد ١٣٨٣هـ ببلجرشي[٢] في منطقة الباحة، كاتب للقصة والرواية، درس في جامعة أم القرى (إعلام وصحافة)، ورأس قسم خدمات القرَّاء في صحيفة عكاظ، كما رأس قسم المحليات والخدمات الصحفية في صحيفة البلاد، إضافة إلى رئاسته لقسم المجتمع في صحيفة الوطن (عضو مؤسس)، وعمل مساعدًا لرئيس صحيفة الشرق، ومدير منطقة الرياض (عضو مؤسس)، وعمل مديرًا للأخبار في قناة الإخبارية السعودية، ومستشارًا لمركز التواصل الحكومي في وزارة الإعلام، وكذلك مديرًا للمحتوى. وقد أجرى بعض اللقاءات مع سياسيين ومثقفين وكُتَّاب رأي، إضافة إلى كتابة المقالة الأسبوعية في عدة صحف ومجلات محلية وخارجية[٣].

ثالثًا: التعريف بالسرد:

لعل الرواية من أقدر الأجناس السردية على التحاور مع مختلف الخطابات والفنون؛ فطرائق تعامل السرد الروائي مع زمن الرواية، وأحداثها وفضاءاتها وشخصياتها، وما تضمنته من ضروب التفاعل القولي، هي طرائق تعيد تشكيل الزمن المروي تشكيلاً زمنياً من خلال التلاعب بالزمن استباقًا وارتدادًا، وتشكيلًا فضائيًا يقوم على ضبط هندسي للمساحات والمسافات في النص الروائي[٤]. ولهذا فقد تجلت أجناس سردية كثيرة في الأدب العالمي، والأدب العربي، منذ مطلع القرن التاسع عشر ضروب من تدخلات المؤلف حول تحديد أجناس مكتوبه، إمّا اعترافًا أو تلميحًا. وهكذا فإنّ الانحراف عن مسار النص قد يكون أكثر وفاء لروحه وأبعاده؛ لضمان بقائه واستمراره، ولعل هذا الانحراف وذاك التحوير ليس عائدًا إلى طرائق في القراءة والفهم والتأويل، وإنما هو خاصية متصلة بالمسافة بين الأجناس الأدبية[٥].

فالسرد هو الطريقة التي ينقل بها الراوي أحداث حكايته وأقوال الشخصيات وأفعالها، من عالم القصة الأصلي إلى عالم النص الأدبي[٦]. والسردية هي تلك "الحالات والتحولات الماثلة في الخطاب والمسؤولة عن إنتاج المعنى"[٧].

---

(٢) تواصل مع الكاتب نفسه عن طريق الهاتف النقَّال بتقنية (الواتساب)، ٢٠٢٤/١/١٦م.

(٣) الغامدي، محمد عبدالله، **رواية: سقف القرية.. قاع المدينة**، ص٧٩-٨٠.

(٤) ينظر: بوطيف، عبدالعالي، **الهندسة ومعمارية النص**، ضمن الكتاب الجماعي: الخطاب القصصي وسائر الخطابات والفنون، ط١، دار ورقة للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون، منوبة، ٢٠٢٢م، ص ٢٢٧.

(٥) ينظر: بنخود، نور الدين، **الدراسات التخصصية والبينية**، ط١، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠١٧م، ص ٦٠

(٦) ينظر على سبيل المثال: قسومة الصادق، **علم السرد المحتوى والخطاب والدلالة**، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠/٢٠٠٩م، ص ٢١٣؛ وحميداني حميد، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ٤٥.

(٧) القاضي محمد، وآخرون، **معجم السرديات**، ط١، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، ٢٠١٠م، ص ٢٥٤.

وقد تنبه البنيويون إلى عالمية الحكاية، وكثرتها وتنوعها الذي لا يحصى في مختلف الأحوال والتحولات، وتباين أجناسها وأنوعها، ونظروا أكثر في قضايا الحيرة التي وقع الدراسون فيها، وحول الخيط الناظم والمشترك الجامع لكل تحققاتها السردية وأشكالها وسماتها وخصائصها الفنية والمضمونية. تهتم السرديات (narratologie)، بما هي علم للقصص هو القصيية (narrativite) القائمة في النص القصصي، وهي بالضرورة تحمل وجوهًا مختلفة، لعل أبرزها الحكاية، وما تنهض به من أحداث وفواعل موصول بعضها ببعض بشبكة من العلاقات(٨). غير أن قراءة السرديات اليوم أصبحت تتجاوز ذلك إلى عوالم وخطابات مغمورة تتخفى خلف قناع القول المألوف والتخييل؛ فقد يغامر الباحث تحت العلاقات المشكِّلة للحكايات البسيطة، ويدقق النظر في امتداداتها الخطابية وعوالمها الممكنة. فيكشف تراسل تلك العلاقات النصية مع علاقات من أنظمة خطابية وأجناسية أخرى، مثل الأسطورة والحكاية الشعبية، والتعدد الحكائي والصوتي، ووظائف أخرى تنهض عليها السردية، بل تعالقها في تسمية أشياء العالم السردي وتجاوز دلالات الواقع المعيش أو كشف مضامينه(٩).

وعليه، فقد استطاعت الرواية الحديثة أن تُعبِّر عن مشكلات العصر، وأهم التحولات الكبرى التي مرَّت بالمجتمعات، ونظرت في مسألة العلاقة بين الأدب والواقع، وبين الأديب والمتلقي، باعتبار الأدب خطاباً تتجدد مقروئيته بتجدد الزمان والمكان. وقد لاحظنا أن هناك من يحدد بداية الأدب العربي الحديث تحت مسمى عصر النهضة، ويعزو عوامل كتابة الرواية الفنية إلى عدد من المحاولات التي سبقتها بفترة زمنية قصيرة.

ومن هنا فإن قضية الكشف عن جوهر السردية من شأنها أن تعكس حقيقة التصور الفكري والإنساني للتجربة، وتنقل فضاء التجربة الإنسانية من عالمها الخاص والعام إلى فضاء التجربة الأدبية عبر فضاء جمالي يسعى إلى التنوير والإقناع والتثقيف في الوقت نفسه(١٠)؛ فيحتفظ الأثر بحقه الأدبي في التعبير عن جوهر فكر الكاتب وعصره من جهة، ويبقي للمتلقي جمالية القراءة والتأويل من جهة أخرى.

(٨) ينظر: الخبو، محمد، **مدخل إلى بوليفية السرد الروائي**، ضمن الكتاب الجماعي: الخطاب القصصي وسائر الخطابات والفنون، ط١، دار ورقة للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون، منوبة، ٢٠٢٢م، ص ٣٨.

(٩) ينظر: العتيبي، طنف، الخطاب على الخطاب: قراءة إنشائية في رواية القارورة ليوسف المحيميد، **مجلة جامعة بيشة للعلوم الإنسانية**، ع:٤، ٢٠٢٤م.

(١٠) ينظر: عبيد، محمد صابر، **التجربة والعلامة القصصية**، ط١، عالم الكتب الحديثة، إربد، ٢٠١١م، ص ١٠٥.

المبحث الأول: ثنائية القرية والمدينة:

لعل الثنائية الضدية بين القرية والمدينة تظهر عند الكاتب للوهلة الأولى عند قراءة عنوان الرواية "سقف القرية، قاع المدينة"، وتُعَدُّ العنونةُ علامةً من العلامات السيميائية، –انطلاقًا– من ارتباطها الوثيق بعلم اللغة بوصفه نظامًا من الإشارات المحملة بدلالات تشي بفكر المبدع(١١)، ولا شك أن عنوان النص الإبداعي هو الشارة الأولى التي تقابل المتلقي، ولا نبالغ إذا قلنا: إنه في كثير من الأحيان ما يكون العنوان سببًا في الإقبال على النص أو الإحجام عنه؛ ولهذا يحرص كثير من الأدباء في عصرنا الحديث على العناية باختيار عناوين أعمالهم الأدبية، كما أن الدرس النقدي الحديث قد أولى دلالة العنوان عناية خاصة، وهي ظاهرة حديثة، فالقدامى " لم يولوا العنوان أهمية، وأرسطو لم يتطرق هو الآخر إليه"(١٢)، ويعود هذا الاهتمام لسببين؛ السبب الأول: هو منح العمل الأدبي سمةً إبداعية، من شأنها أن تحافظ على بقائه؛ فحسن تأليف العنوان وصبغه بصبغة إيحائية يسهم في الكشف عن النص، ويعمق كينونته، فغالبًا ما يكون العنوان محملًا بدلالات وعلامات إيحائية شديدة التنوع والثراء، وبذلك يصبح مثله مثل النص، بل يصبح نصًّا موازيًا. أما السبب الثاني: فيكمن في كون العنوان نقطة انطلاق لدى القارئ قبل الولوج إلى متن النص، فيصبح بذلك إضاءةً لمحتوى النص، وكلما جاء العنوان حاملًا لمضمون النص، كان مفتاحًا أجدى لفك مغاليق النص (١٣).

وعندما ننظر إلى ثنائية القرية والمدينة في عنوان رواية "سقف القرية، قاع المدينة"، نجد أنها تعكس تفاوتًا واضحًا بين الحياة الريفية والحضرية، وتسلط الضوء على التناقضات والتحديات التي تواجهها كل منهما. يتم تجسيد هذه الثنائية من خلال سردية الجنائز، التي تعكس لنا تباينًا في المفاهيم الثقافية والاجتماعية والدينية بين القرية والمدينة، ولهذا نجد الثنائية الضدية بارزة للقارئ انطلاقًا من عتبة العنوان بين كلمتي: (**سقف:** الذي يعني العلو والرفعة، وفي مقابلها كلمة: **قاع** الذي يعني الدنو والسقوط)، إضافة إلى الثنائية الأخرى المتمثلة في العنوان بين كلمتي: **(القرية:** التي تدل على المكان الريفي والطبيعي، وفي مقابلها كلمة **المدينة:** التي تدل على المكان الحضري والعمراني وكل ما يمت للصناعة بصلة)، وعليه تكون مرجعية الكاتب مكانية بالدرجة الأولى في أغلب قضايا الرواية كما سنلاحظه لاحقًا، والعنوان يشي بتفضيل الكاتب للمكان القروي على المكان المدني للوهلة الأولى.

(١١ ينظر: سوسير، فرنان دي، **علم اللغة**، ت: يوئيل، يوسف عزيز، بيت الموصل، بغداد، (د.ط)، ١٩٨٨م، ص٣٤.

(١٢) بنيس، محمد، **الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاته**، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص١/ ١٠٦.

(١٣ ينظر: قطوس، بسام، **سيمياء العنوان**، ط١، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١م، ص٢٦–٣٧.

وبهذه الطريقة، تبرز ثنائية القرية والمدينة في رواية "سقف القرية، قاع المدينة" كمظهر مهم للتناقضات الاجتماعية والثقافية بين الحياة الريفية والحضرية، وتسلط الضوء على الفروقات في القيم والتقاليد والعادات بين القرية والمدينة، وتعكس التحديات التي يواجهها كل منهما في تأقلمه مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة.

وإذا تجاوزنا عنوان الرواية إلى السرد في المدونة المدروسة يمكن اعتباره تجربة صادقة تجسد قدرة الغامدي الإبداعية، وبراعته الكتابية في الكشف عن أفكاره ورغباته. ومن هنا فإن أسلوب السرد في رواية "سقف القرية، قاع المدينة " يحقق بعض المهام المتنوعة، يسردها جملة بأسلوب السارد/الرواي العليم؛ الذي يتولى نقل الأحداث، وتوكل إليه مهمة السرد؛ لأنها تشارك في الأحداث بالقول والفعل، وتُسند إليها مهمة السرد أحياناً. وبذلك يمتح السارد أفكاره وأحداثه من الذاكرة؛ لأن السرد يعتمد عليها في أغلب الأحيان، ومن هنا فإن التتابع السردي سمح للكاتب ذكر تفاصيل الحدث وظروفه وفواعله، بل هو وسيلة فنية لكشف الخفايا والمفارقات الذاتية؛ خاصة إذا ما علمنا أنّ" حقيقة الذاتية في الكلام تكون على ضربين: أولهما، فقوامه ما تقف عليه من ضمائر ومشيرات مكانية وزمانية، تحيل على المتلفظ وهو يتكلم، وثانيهما، فمداره على ما يعرض في مجال الكلام، من تقويمات وأحكام، ومواقف يبديها القائل إزاء ما يسوق من أخبار عن الأشياء والشخصيات"(١٤). إنّ الأحداث السردية في رواية الغامدي جعلت من ذاته مدارًا للسرد؛ ولهذا نجدها حاضرة في كثير من الأحداث سواء في القرية أم في المدينة، ما يعني أن الكاتب يسرد واقعًا تسجيليًا للمكان بالدرجة الأولى مع حضور الذات الكاتبة، ومن الأمثلة على حضور الذات الكاتبة في المفتتح السردي لجنائزه، يقول عن الجنازة الأولى: "**الجنازة الأولى التي أتذكرها والتي تتصبب ألما من كل الحضور كانت وأنا في صغري، ربما في التاسعة من عمري أو العاشرة لكنني أذكر بعض التفاصيل عن موت جدتي**"(١٥)، ويقول عن الجنازة الثانية: "**الجنازة الثانية التي أتذكرها هي جنازة عمي، وكنت يومذاك أعيش في جدة**"(١٦)، أما في الجنازة الثالثة، فيقول: "**الجنازة الثالثة حملت معها حادثة لأول مرة تحدث في زمن القرية، لكنه زمن جديد...، وكأن السور وضع ليقف حائلًا بيننا نحن أهل القرية وبين التواصل مع موتانا**"(١٧). ونلاحظ حضور ذات الكاتب في سرد الأحداث على مساحة واسعة من رواية "سقف القرية،

(١٤) الخبو، محمد، **مدخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية**، ط١، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠٠٦م، ص ١٦٣.

(١٥) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٩.

(١٦) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٢٨.

(١٧) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٥٠.

قاع المدينة"، وبلغة توثيقيَّة تراوح بين الذاتي والموضوعي، مع الانحياز إلى الفضاء المكاني المتمثل في القرية، ومرجعية الكاتب في سردية روايته مرجعية بيوغرافي وسردية للذات معًا، إضافة إلى حياة الذات الكاتبة ارتباطًا بالمكان، واستكمالًا للهوية التاريخية للمسرود، وقراءة أحداثه ومدى ارتباطها بالمؤلف، فالسرد يُبين حالة الذات الكاتبة في بعدها الاجتماعي والوجداني والتاريخي. ولقد حاول الكاتب أن يخفي شخصيته في السرد الذي يقترب من السيرة الذاتية، أو فلنقل بعبارة أخرى سيرة ذاكرة الكاتب التاريخية إن جازت لنا التسمية، مع العلم أن الكاتب أشار قبل بداية الرواية بإحاطة مفادها: "**للإحاطة: لا شأن للقصة إن تطابقت مع أحداث قد تحدث أو حدثت**"[١٨]، إن هذا التلويح من المؤلف لا يمكن الاطمئنان إلية؛ لأننا لاحظنا طغيان الذات الكاتبة، وضمير الأنا، إضافة إلى السارد العليم بكل تفاصيل أحداث الجنائز بمرجعياتها المتعددة والمختلفة في الوقت عينه للرواية، والتي تشير إلى أن الإحاطة التي تنفي الفعل الكتابي عن المؤلف، ما هي إلا محاولة من الكاتب للتخفي أو الإدانة بما سيكتب في الرواية، وإن كانت الرواية واقعية تسجيلية، وتنحاز إلى المؤلف بشكل كبير.

ولقد طغى على الكاتب في بعض مواضع الرواية الاستطراد التفصيلي إلى الحديث عن سردية طقوس جنازة عمه وجدته، عن طريق الثنائيات المقارنة في المرجع ما بين القرية والمدينة؛ حيث كانت الطقوس الجنائزية لجدته في القرية بوجود المقبرة القريبة، وكذلك قرب المسجد، وحال أهالي مجتمع القرية في الالتفاف حول الجثة والدعاء لصاحبها، يقول مُقارِنًا بين جثث الموتى باختلاف مرجعها المكاني: "**أعلنوا وفاة عمي... لم يكن هناك مجلس ينام فيه ليكون الجميع من حوله يدعون في خشوع، ولم تكن المقبرة قريبة من البيت، ولم يكن المسجد قريبًا، كل ما هناك سيارة نقلته من المشفى ومنه إلى مغسلة الموتى ومنها إلى المقبرة، لم أشاهده على فراش الموت الدنيوي، ولم أقبل خده وأودعه الوادع الأخير مثلما قبّلت جدتي، بل رأيته وهو مسجى في ضريحه في مقبرة أمنا حواء، لم أكن أعرف أنا الذي أعيش في مدينة جدة مدة تقارب العشر سنوات أن هذه المقبرة في حي الفيصلية، كنت أسمع بها فقط ولكنني لا أدري أين هي؟ لم يكن هناك لحد ولم يكن البيت الذي يخصه وحده مثلما هو في مقبرة القرية بل كان إلى جواره جثث كثيرة، ولم يكن هناك ماء وطين ولا زربة**[١٩]" ونلاحظ السردية الواصفة لطريقة الدفن والأدوات التي دُفِنَ فيها الميت من الطين، والتراب، وأحجار القرية، في حين كانت طقوس جنازة العم مختلفة تمامًا في المدينة.

(١٨) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٧.

(١٩) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٣٩-٤٠.

بدأ الكاتب في عقد مقارنات ضدية قائمة على اختلاف المرجعية في علاقات الناس ببعضهم، وما يربطهم من عادات وتقاليد اجتماعية راسخة، وهنا يقيم الراوي/ الكاتب موازنات بين المدينة والقرية بما فيها أشكال البيوت وطبيعتها على سبيل المثال، يقول: "... **ولكن دعوني أضع أمامكم موازنة بين بيوتات القرية وبيوتات المدينة، في الأولى تكون منازلها على شكل حلقة، وفي الثانية تبحث عن شكل هندسي فلا تجده، تريد أن تصنع دائرة أو مربعًا أو مستطيلًا أو مثلثًا فلا ترى الشكل الهندسي، فما هو الفارق بين الأولى وبين الثانية؟ وما ذا يعكس في حياتنا؟**[٢٠]" ، يبين المقطع السابق الفارق بين بنية بيوت القرية وبيوت المدينة، والتي تعكس الفروق الثقافية والاجتماعية بين الحياة الريفية والحضرية، مما يؤثر على طبيعة العلاقات الاجتماعية والشعور بالانتماء والتواصل في كل منهما، ففي القرية، يكون التواصل الاجتماعي أكثر سهولة ويسرًا، حيث يعيش الأفراد والعائلات في بيئة مشتركة تعزز التواصل المباشر والتعاون، بينما في المدينة قد تكون العلاقات الاجتماعية أكثر تنوعًا، ولكنها قد تفتقر إلى الاتصال العميق الذي تتميز به القرية. وإن كانت طريقة سرد المؤلف للمشهد الواصف للبيوت هو مخاطبة القارئ مباشرة، وترجله عن أسلوب السرد الأدبي الحكائي إلى أسلوب الخطاب المباشر للمتلقي في قوله: "دعوني أضع أمامكم موازنة بين..."، وهو أسلوب ينحو إلى الإقرار بحضور الذات الكاتبة، والتي أشرنا إليها سابقًا، الأمر الذي أدى إلى تأرجح الرواية بين السرد الواقعي التسجيلي وبين السرد الأدبي الإبداعي، ما يفهم منه في بعض الأحيان أنها سمة سلبية في الكتابة السردية في تدخل الكاتب من ناحية تأويل المراد والتقدير، دون أن يدع مهمة ذلك للقارئ في التأويل والمشاركة.

وتعج الرواية بالقضايا المتعلقة بثنائية المرجع المتضاد بين القرية والمدينة عند المؤلف، منها ما كشفه عن طبيعة الجنازة الثالثة التي رفضت الدفن في المدينة، بل أوصت في دفن الجثة في القرية، وهذا يحيل إلى قوة الارتباط المضمر للعم وللكاتب نفسه لرفض مكان المدينة وتفضيل القرية عليه؛ كونهما ينتميان إلى القرية، يقول: "**هذه الجنازة حملت غضبها منذ البدء على المدينة، فقد أصر صاحبها أن تدفن في مقبرة القرية، وألا يتم دفنه في مقبرة المدينة**"[٢١] في هذا التصريح من صاحب الجثة قبل موته إعلان صريح على الرفض القاطع للمدينة، حيث يظهر صاحب هذه الجنازة بكل وضوح عدم الرغبة في الارتباط بالمدينة، ويعبِّر عن رغبته في البقاء مرتبطًا بالقرية التي يعتبرها موطنه الأصلي، ومكانًا لذكرياته وترابطه الاجتماعي. من خلال رغبته في دفنه في مقبرة القرية، يظهر صاحب الجنازة انتماؤه العميق والقوي للقرية، ورفضه للمدينة وكل ما تمثله.

(٢٠) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٤٦-٤٧.

(٢١) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٥٠.

يشير الراوي في سرديته عن أثر الثنائية الضدية بين المدينة والقرية في مرجعيتها الاجتماعية والتربوية والفكرية عليه، ومن الأمثلة على ذلك حديثه مع عمه/ الجنازة الثانية:"**لم يعد يربطني أي شيء بأحد، لست في القرية أنا في المدينة ويجب أن أعيش حياتي بطريقتي، حيث لا رقيب ولا عتيد، ليس هناك عمدة للقرية، ولا هناك آباء كثر يروننني ويعرفون تحركاتي ويقرصون أذني. كل من في القرية كان يمثل الأب لأبنائهم، أما في المدينة فلم يعد هذا الهاجس يطاردني، كل ما يطاردني هو كلمة الحرية، هذه الكلمة التي لا أعرف معناها وقتذاك، ولا أعي ما هي أبعادها**"(٢٢)

ومما سبق، يمكن القول إن الثنائية الضدية كانت حاضرة بخلفيتها المرجعية عند المؤلف ما بين المدينة والقرية بكل تجلياتها المكانية وما يمت إليها بصلة من قريب أو من بعيد، ووجدنا أن الكاتب تأرجح في سرده ما بين الذاتي والموضوعي، ما بين ذاكرة يعتمد عليها في السرد التاريخي لشخصية الراوي العليم، وما بين الموضوعي الذي يعالج قضايا تختص بالقرية والمدينة كندين متضادين، مع انحياز المؤلف إلى القرية؛ كون ولادته ونشأته فيها، فانعكس ذلك على تداخله ومشاركته في بعض المواضع من الرواية إلى الأسلوب المباشر التسجيلي مع المتلقي لتفسير ما يمكن تفسيره لبعض المواقف والأحداث لسردية الجنائز التي مرَّ بها في حياته.

ومن خلال سردية الجنائز، نرى كيف تتجلى الفروقات بين القرية والمدينة. في القرية، تتسم الجنائز بالبساطة والترابط الاجتماعي، حيث تكون محاطة بالعادات والتقاليد القديمة والمعتادة، يتواجد الجميع رجالًا ونساء؛ لدعم بعضهم البعض وتقديم العزاء، مما يعكس الروح الجماعية القوية والترابط في المجتمع القروي. وفي المقابل نجد المدينة، تكون الجنائز أقل روحانية وتجاهلًا للتقاليد القديمة. قد تكون العلاقات الاجتماعية أكثر بعدًا وتباعدًا، وتكون المشاركة في الجنازة أقل، مما يظهر عزلة الفرد وانفصاله عن المجتمع في المدينة.

وعليه، فإن الكاتب اعتمد على خلق الثنائيات بمرجعيتها المختلفة والتي تتكئ على المكان في المقام الأول؛ لِتُقَدِّمَ صورة شاملة للتناقضات بين القرية والمدينة، بناء على المكان الذي يقدم شخصياته بتحدياتها المختلفة لتؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في تطور أحداث الرواية.

(٢٢) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٣١-٣٢.

المبحث الثاني: ثنائية الحياة والموت:

شكَّلت سرديَّة الموت نقطة انطلاق للرواية عند المؤلف، وهي الجنائز الثلاث بقضاياها المرجعية كما مرَّ معنا سابقًا، إذ إنَّ الكاتب قاد القارئ نحو استكشافات مختلفة حول الموت ومعانيه، وكذلك تأثيره على الحياة والعلاقات الإنسانية. كما تناول الغامدي موضوعات مثل: الفقدان والحزن والتعاون في مواجهة الموت، مما يعزز العمق الفلسفي والإنساني للرواية، ومن البديهي أن تكون الحياة حاضرة بكل معانيها في مقابل الموت؛ لتخلق ثنائية ضديَّة تتآزر مع بعضها بعضا في تكريس قيمة الوجود الإنساني على الأرض، وتؤثر بشكل مباشر على تحولات الرواية وخلق مفارقات مستمرة عند كاتب النص لسردية الجنائز ومرجعياتها.

أسَّسَ الكَاتِبُ سرديته في رواية "سقف القرية، قاع المدينة" على فكرة الموت للجنائز كما ذكرنا، فخلق على أثرها مرجعيات مختلفة لقضايا تمس المجتمع السعودي، ولا سيما المجتمع الجنوبي منطلقًا من ثنائية المكان المتمثل في القرية والمدينة كما هو العنوان، فالموت في الرواية لا يقلُّ أهمية تلك الثنائيات التي بثها الكاتب في ثنايا روايته، ومن الأمثلة على ثنائية الموت والحياة عنده على لسان الطفل/ الكاتب، قوله: "**وبعد ساعة أتيت غرفة جدتي، ثم نظرت إليها وهي نائمة، ونظرتي كان فيها استغراب فليس من عادتها أن تتأخر عن موعد قهوتها، فاقتربت منها ثم ناديتها (أمّه) أمّه وش فيك تأخرتي اليوم... أبغى أشرب معك قهوة؟ ولكنها لم ترد علي، فاقتربت منها وهززتها وناديتها غير مرّة ولكنها لم ترد علي؛ فصرخت وأنا متجه صوب غرفة أمي**"[٢٣]، في المقطع السابق يستخدم الكاتب أسلوب سردية الوصف للمشهد الذي يرغب في تقديمه للقارئ؛ ليبين له التبادل القائم بين الحي والميت على الحركة والسكون بين الطفل الحي وجثة الجدة؛ ليعبر عن حالة الحزن والفقد التي يشعر بها، وإن كان الوصف يعبر عن رمزية دورة الحياة والموت للإنسان، والتذكير بأن الموت والحياة جزء لا يتجزأ من التجربة الإنسانية؛ لتفضي إلى تساؤل أكبر عند المتلقي عن فلسفة الحياة والموت وكيفية التعامل والتأقلم معهما في الوقت نفسه. إضافة إلى ما سبق يلاحظ أن المؤلف وظف المحكي اليومي باللهجة العامية؛ لتقريب المشهد من الواقعية عند المتلقي.

(٢٣) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص١٣.

ونجد أن الكاتب قد كثَّف فكرة الموت في روايته كنوع من التأمل والتفكر في حياة الإنسان وما تؤول إليه حياته، وهي أيضًا ثنائية يخلقها المؤلف في مواضع كثيرة من روايته، ومن ذلك موقف كبيرات السن من النساء القرويات وردة فعلهن على وفاة الجدة، يقول: "**العجائز من نساء القرية صامتات وبلا حركة، وكأنهن يفكرن في هذا المصير المحتوم، وينتظرن اللحظة التي سيكونون فيها مثل جدتي، يستعدن الذكريات مع جدتي التي كانت تشتهر بصنع القهوة والخبزة**"(٢٤)، وثنائية الموت والحياة في المقطع السابق حاضرة بوضوح تام في حالة الوصف للصمت والسكون عند العجائز للاستسلام للمصير المحتوم والتفكير في التباين بين حالة الحياة والموت في تجربتهن.

ويُصرُّ المؤلف في سرديته الجنائزية على حالات من التأمل والتفكر على لسان الشخصيات في حالة الموت في بعد فلسفي من وجهة نظره، يقول على لسان أهالي القرية: "**كانت لحظة الحقيقة واضحة في عيونهم، كانوا يصغون لهذا النداء الحتمي ويتأملونه بملء جوارحهم، يعتصرهم الحزن والخوف في الوقت نفسه، الحزن حرارة الفقد، فقد عاشت بينهم طوال ستين سنة تقريبًا أو أكثر، ورغم ذلك فإنها ذهبت بلا رجعة، والخوف من المصير نفسه، وكأنهم يتساءلون هل ستكون ميتتنا بالبساطة نفسها التي ماتت فيها هذه المرأة**"(٢٥)، هذا النص يرسم صورة أخرى للحظة الوداع والتأمل في الموت؛ حيث يعبّر الأفراد عن مشاعر الحزن والخوف تجاه فقدان شخص عزيز عليهم، وقد تناول النص ثنائية الموت والحياة من خلال تباين المشاعر بين الحزن على فقدان الحياة والخوف من مصير الموت؛ مما يسلط الضوء على تعقيدات الانتقال بين الحياة والموت، الأمر الذي يمكن أن يفسر على أنها أسئلة وجودية فلسفية عميقة نحو الموت.

وقد وظَّفَ عبد الله الغامدي في روايته الثنائيات الضدية المتعددة بمرجعياتها المختلفة لتتشابك فيما بينها؛ لأن المحرِّك الرئيس عند الكاتب طابع فكري يعتمد على إعمال الذهن في السرد الذي يرومه الكاتب، من ذلك حديثه عن طبيعة حياة الإنسان التي تنتهي بالموت "**أي مشهد للموت هذا الذي نراه... وما الحكمة التي نراها أمامنا ولا نستطيع استيعابها، فعندما ننظر إلى جثة هامدة على أنها كانت مجرد آلة تفرخ الريالات فإننا ننظر إلى أنفسنا وأننا مجرد آلات بدون روح يجب أن تعمل ليل نهار لتجمع من هذا الحطام دون التفكير في غدنا. نحن هذه الآلات التي تعيش في صخب من أجل موقع التقدير في هذه**

(٢٤) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص١٨.

(٢٥) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٢٦.

المدينة القاتلة للروح، والتي تنتزع من الإنسان إنسانيته، وتجعله يدور ليل نهار ليذهب عمره دون أن يشعر به، ليجد نفسه جثة تتحدث إلى من حولها فلا أحد يستجيب لها، ولا أحد ينصت للحكمة التي تبدأ بإطلاقها منذ حملها في سيارة الموتى إلى أن تصل إلى مثواها الأخير، وهو تلك الحفرة الصغيرة التي تلتهم هذا الجسد، وبعد أن نهيل عليها التراب ننساها تمامًا ونذهب إلى ما تركته لنا هذه الآلة"[٢٦].

في المقطع السابق من رواية عبد الله الغامدي يظهر استخدامه لثنائيات ضدية متعددة، حيث يقارن بين الحياة والموت وبين الجسد والروح. ويركز الكاتب على التعقيدات الفلسفية للحياة والموت، حيث يصوّر الموت كمشهدٍ غامضٍ يثير التساؤلات حول الوجود والغاية، وقد تناول الجانب الروحاني للإنسان الذي يشير إلى أن الحياة ليست مجرد وجود جسدي بل تتضمن أيضًا جوانب روحية وفلسفية، فاستخدم الكاتب لغة عقلية؛ للتأمل والتفكير في إبراز النقاط المعقدة حول الهوية البشرية والغاية الحقيقية من الوجود، مما خلق توترًا فلسفيًا يشد القارئ ويدفعه للتفكير في أعماق الوجود والحياة الإنسانية.

ونجد أن المدينة شكَّلت العقدة النفسية الكبرى عند الكاتب، فما يقع على الجثث في سرديتها المتتابعة تركز على الجانب المكاني للمدينة التي ألقت بظلالها على كافة المرجعيات الأخرى، من ذلك قوله: **"هكذا هي المدينة وهذا هو التطور، وكي تتحقق كسبًا في هذه الحياة عليك أن تدهس الآخرين. كن طاغية وستصل... أليست موازين الاقتصاد تطالب بذلك؟.. هناك جثة طائرة فوق أجواء جدة تجوب الشوارع والأحياء وتنتقل من حي إلى حي تتحدث إلى الناس، والجميع عنها لاهٍ،...ثم تصرخ:**

شقاء.. شقاااااء.
ثم تجوب الآفاق وتعود تصرخ:

- **أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.**

تختفي عن الأنظار التي لا تنظر إلى الأعلى...

حياة أصبحت تقف في إطار المادة فقط، لا شعور بل ليس من روح. أجساد تسير بلا روح. لم يعد يهزها صوت الرعد ولا يؤثر فيها وميض البرق، ولا خسوف ولا كسوف. لم تعد تفكر في الأشياء حولها... لم يعد للجثث في حياتها قدسية، متى ما مات الميت يكفي أن تنثر عليه الدموع ثلاث ساعات في ثلاثة أيام وقت وجود الناس فقط، وبعد أن يرحلوا كل جسد يذهب للبحث عن حياته الشقية"[٢٧].

(٢٦) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٤٩.

(٢٧) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٥٢-٥٣-٥٤.

إنَّ السردية السابقة تبرز الثنائيات المتعددة التي يعتمدها الكاتب لتصوير المدينة كعقدة نفسية، فيركز فيها على التباين بين الحياة في المدينة والقيم المادية والروحية حيث النهايات التي تنتهي بالموت، وقد صوَّر الكاتب المدينة كمكانٍ يُجبر الأفراد فيه على التنافس والتحول إلى طغاة لتحقيق الأهداف والنجاحات. فظهرت الجثث المتحركة في المدينة كرمز للحياة الخالية من الروح، حيث يعيش الأفراد دون تفكير في الأشياء الروحية أو الإنسانية؛ لأن الكاتب يرغب في إبراز الغياب الروحي والقسوة الاجتماعية في المدينة، حيث يفقد الأفراد قدسية الحياة التي تنتهي بالموت، ويصبح التعبير عن العواطف مجرد تقليد اجتماعي، وقد أبانت هذه الثنائيات التعقيدات الفلسفية للحياة في المدينة والتي انعكست على التجربة الإنسانية والروحية معًا، ومما يلفت الانتباه أن الكاتب استخدم اللغة التخييلية للتعبير عن حدث الموت في المدينة، وهو استخدام قليل الحضور في أسلوب السرد عند المؤلف كما مرَّ معنا، بالإضافة إلى توظيف صوت الجثة التي تعبر عن صوت العقل للمؤلف نفسه كنوع من الحوار المنفرد إن جازت لنا التسمية، يقول في النص ذاته:

تظهر الجثة على سماء جدة وتصرخ:

طهروا قلوبكم وعودوا إلى زمن القرية، إلى زمن الحارة.

لا أحد يلتفت، كل واحد منهم مشغول بما في يده.

تصرخ الجثة/

أيها الناس أنتم في غي.

تتوالى الصرخات:

- **أنتم في وباء.**
- **احذروا من عذاب الدنيا قبل الآخرة.**
- **عودوا إلى زمن القرية.**
- **عودوا..**
- **عودوا...**
- **عو.....**

يئست الجثة من صمم القلوب واختفت.

ليست العبرة في الحياة بل في الموت"[٢٨].

(٢٨) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٥٤.

وهكذا يستمر الكاتب في سردية الموت للجثة؛ ليوجه رسالة حول الحياة والقيم الروحية، والتي رمَّزها الكاتب عن الجثة التي ظهرت في سماء جدة، كرمز للرفض والتمرد على الواقع المعيش، ويطالب الإنسان بالعودة إلى القيم والتقاليد الروحية للماضي، مثل زمن القرية والحارة، ويحذر الناس من الانغماس في العالم المادي والتجاري. وقد تجلَّت سردية الموت في تعبيرات الجثة المتواصلة عن الحنين إلى الزمن القديم والدعوة للتوبة والعودة إلى الروحانية والبساطة؛ فعبَّر الكاتب عن حالة الغياب الروحي والتفكك الاجتماعي في المجتمع الحديث.

وقد كشف هذا المقطع السردي عن علاقة الذات بالواقع الروائي، وبعبارة أخرى علاقة الذات بالفعل السردي الحكائي، الذي ترويه، وهي تندرج في بنيته السردية بوساطة راوٍ خارجي هو الكاتب نفسه؛ إذ يوكل إليها مهمة السرد ويجعلها تحمل على كاهلها خطابها السردي، وهو يتضمن خطابه الروائي. وهكذا أصبحت الرواية إطارًا مناسبًا لحكاية الذات/ الجثة في علاقتها مع المجتمع الذي تعيش فيه؛ حيث استطاعت الجثة أن تخضع لمنطقة سردية تسعى إلى الموازنة بين الموت والحياة، الأمر الذي جعل الجثة تنفتح على حرية تعبيرية بشكل متسع. وهكذا صور المقطع جانبًا مهماً من الواقع، والكاتب استطاع أن يقدم عن الذات رؤية واضحة في علاقتها بالموت عن طريق الجثة؛ فحرر لغته السردية بمقاصد وأنواع تهذيب تخلق لغة غنية بالمواقف والأحداث[٢٩].

وخلاصة القول، لقد تناول الكاتب عبد الله الغامدي في روايته ثنائية الحياة والموت بشكل مفصّل؛ حيث قدّمَ للقارئ تأملات عميقة حول طبيعة الإنسان ومصيره، ورسم صورة معقدة لتجربة الحياة والموت بالنسبة للإنسان، فسرد العديد من المواقف والحالات التي تبرز التناقضات والتحديات التي يواجهها الإنسان.

ويستخدم الكاتب ثنائيات متعددة، مثل: القرية والمدينة، والحياة والموت؛ ليعكس تعقيدات التجربة الإنسانية، ويظهر في الوقت نفسه كيف أن القرية تمثل الجانب الروحاني والتقاليد والقيم الأسرية والمجتمعية، بينما تمثل المدينة الحياة الحضرية في المدينة التنافس والمواجهة، ومن خلال هذا التوظيف للثنائيات استطاع الكاتب أن ينقل تجارب مختلفة لشخصياته، وكيف أثَّر الموت على حياتهم في هذين السياقين المختلفين.

(٢٩) ينظر: بارت، رولان، **الدرجة الصفر للكتابة**، ت: سلوى العوتلي، وعبد الدايم السلامي، (د.ط)، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٨م، ص ٦٧.

ويعزِّزَ الغامدي الجانب الفلسفي والإنساني في الرواية من خلال تناوله لمواضيع مرتبطة بثنائية الموت والحياة، مثل: الفقدان والحزن والتعاون في مواجهة الموت، وعلى أثرها رسم صورًا مؤثرة لحالات الوداع والتأمل والتفكير التي تحدث عند وفاة الأحباء، مما يشير إلى الطبيعة الجوهرية للإنسان وقدرته على التأقلم مع مواقف الخسارة والفقدان.

وفي المجمل نجد أن المؤلف قد استخدم اللغة التخيلية والوصف الدقيق في الرواية، وهي من الحالات النادرة عنده، بحيث يغلب على لغة الكاتب اللغة الذهنية التي تحاور عقل القارئ؛ وتحاول إقناعه أو التفسير له بالأحداث واختلاف المرجعيات، وقد نجح الكاتب في مواضع من روايته في نقل المشاعر والأفكار العميقة حول الحياة والموت، ودفع بالمتلقي إلى التأمل والتفكير في أعماق الوجود الإنساني ومعنى الحياة، وبهذه الطريقة تمكن من إبراز التعقيدات والجوانب المختلفة لثنائية الحياة والموت، وأضفى على الرواية بُعدًا فلسفيًا وإنسانيًا عميقًا.

المبحث الثالث: ثنائية الروح والمادة:

ولا تقل أهمية ثنائية الروح والمادة في رواية "سقف القرية، قاع المدينة عن الثنائيتين السابقتين (القرية والمدينة/ الموت والحياة) إذ إن ثنائية القرية والمدينة مثَّلت الجانب المكان لأحداث الرواية، وتأسست الرواية على فكرة الموت وطقوس الجنائز مستدعية في المقابل الحياة والبقاء، في حين أن ثنائية الروح والمادة شكلت العمق الحقيقي لتأثر الإنسان بما يجري من حوله سواء في المدينة أم في القرية، الأمر الذي جعل المؤلف يسرد وجود الإنسان في حياته وانتهاء بموته، وهذا الإنسان إما أن يكون قرويًا روحيًا في حياته، وإما أن يكون مدنيًا ماديًا في نهاية حياته بناء على رؤية الروائي، الأمر الذي يعطي الثنائيات أبعادًا أعمق وأبعد في الوجود الإنساني وطبيعته وجوده. لقد استغل الغامدي أثر الطفرة الاقتصادية التي مرت بها المملكة العربية السعودية في حقبة زمنية مضت، وظهور المدن وتطورها بشكل سريع لم تستوعبه المجتمعات في تلك الحقبة الزمنية، وخصوصًا أن التقدم العمراني والتطور الاقتصادي لم يستوعبه أبناء القرى البسيطة المترامية في أطراف البلاد، والكاتب يستغل تلك الأحداث والتطورات ويقيسهما في ردود الفعل ما بين القبول والرفض، ويسرد أحداثها في تلك الحقبة وأثرها على مناحي الحياة المختلفة، ولا سيما أهالي المناطق الجنوبية التي ينتمي إليها مؤلف الرواية.

ويروي الكاتب الأحداث التي مرَّ بها عمه أثناء حياته عندما كان يمتلك سيارة شحن كبيرة، ثم حولها إلى صهريج؛ لنقل النفط، ثم تحويلها إلى (قلاب) لنقل البطحاء/ التراب للبيوت الجديدة التي تبنى حديثًا، وهنا يتضح التحول والتدرج الذي يرسمه المؤلف على لسان عمه حتى على مستوى السيارة التي طالها التحول والتغير؛ بناء على متطلبات المادة والسوق في ذلك الوقت، وهو يحكي في الوقت نفسه ما طرأ على المجتمعات في المملكة العربية السعودية في حقبة زمنية مضت، زمن الطفرة، وقضية التحول السريع الذي طرأ حتى على القرى، وبروز نجم المدن الذي يرفضه كثير من الناس ذلك الوقت بما فيهم الكاتب ذاته، حيث يقول: "**كان عمي يملك سيارة شحن (لوري)، كان عليها في البدء صندوق خشبي ثم أحاله إلى صهريج لنقل الكيروسين من مدينة جدة إلى منطقتنا، إلى أن كسدت تجارته فحول ذلك الصهريج إلى قلاب وأصبح ينقل البطحاء على البيوتات الجديدة التي يتم إعمارها في المنطقة من الأسمنت والحديد، لم يكن هذا التحول في داخلي أنا فقط بل كان في أنفس أهل القرية أيضًا استبدلوا بيت الطين ببيت الخرسانة**"[٣٠]، ومن خلال هذه السرديّة، يربط الكاتب بين التحول في استخدام السيارة وبين التطورات في المجتمع، حيث يعكس الانتقال من بيوت الطين إلى بيوت الخرسانة الناجمة عن التطور الاقتصادي والتنموي الذي شهدته المنطقة. مما يعكس التحول الحضاري والثقافي والاجتماعي الذي أثر على حياة الأفراد وأساليبهم في العيش والسكن في مناطق جنوب المملكة العربية السعودية، وبالتالي فإن فكرة التحول في النص تتمحور بشكل رئيس على التطورات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، وكيف أن سيارة الشحن مثلت رمزًا لهذه التغيرات والتحولات التي شهدتها المنطقة في فترة زمنية مضت، والكاتب يقترب من الواقع التسجيلي الذي يصور واقع المجتمع وما طرأ عليه من تحولات تاريخية.

وعلى هذا التطور والتحول في المكان يسرد الكاتب الآثار الناجمة عن التطور والتحول على طبيعة الإنسان، ومن ذلك تفسيره لاهتمام المستشفى ببقاء جثة عمه على قيد الحياة فترة أطول، وذلك من أجل المال؛ كي تزيد نفقات أسرته عليه، وفي هذا إشارة إلى تحول الإنسان إلى سلعة لها قيمتها المادية، ولو خالف ذلك السلوك البشري؛ لأن المادة طغت على الجانب الروحي. كما أنَّ حديث الكاتب يلمح إلى المقارنة بين أهالي القرية والمدينة، وأن هذا السلوك لا تجده في القرية: "**وأن المشفى لا يريد سوى إطالة مدة إقامته فيه، دون التفكير في راحته، بل إن عملهم يتطلب أن يزيدوا المدة قد المستطاع من أجل الحصول على أكبر قدر من المال. وأولاده جميعًا كانوا في حالة قلق، وجميع الأقارب يذهبون ويأتون إلى**

(٣٠) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٥٣-٥٤.

المشفى كل يوم وبالطريقة نفسها، دون أن يكون هناك سوى الحيرة مما يحدث فيه...، أو لا نستطيع القول أخرجوه من المشفى...، خوفًا من كلام الناس... فقد يقولون إنهم لم يصرفوا على أبيهم وهو على فراش الموت، أو يستكثرون عليه أن يدفعوا له ثمن نومته على السرير الأبيض"[٣١]، في هذا المقطع وضَّح الكاتب بعض التحولات التي طرأت على المجتمعات وأن القيمة الحقيقة تكمن في المادة، وقد أعاد الكاتب الضعف البشري أمام الاستغلال الذي يتعرض له من ناحية مادية؛ خشية الرقيب الاجتماعي الذي يخشاه أبناء عمه، وهو كلام الناس؛ لأنهم ينتمون إلى القرية لا المدينة، والمقطع محمل بإحالات مرجعية شكلتها ثنائية المادة عند الكاتب بالدرجة الأولى.

تبدو الثنائيات الضديَّة في الرواية مسيطرة على ذهنيَّة محمد الغامدي إلى درجة كبيرة، الأمر الذي جعلها حاضرة صراحة في سرديته لكل الأحداث المحيطة به، من ذلك حديثه مع عمه في المستشفى ومقارناته المشتركة بالقضايا التي تختلف في مرجعيتها المادية والروحية بناء على خلفيتها المكانية المتمثلة في القرية والمدينة، يقول: "**حتى أصبحت أنظر إلى وضع يدي في يده ونظرتي هي مجرد لمسة مادية لا تتجه نحو الروح، لا تتصل بها، ولا تقترب حتى من الولوج في أبسط تفاصيلها. لو أنني نقلت له ما يجول في خاطري وقتذاك لأقنعت نفسي اليوم أنني كنت أتصل معه روحيًا، وأن الحياة المادية لم تكن تشغلني، وأن التحول الذي أحدثته في داخلي المدينة لم يكن بلا مشاعر أو أحاسيس، ولم يرتم في حضن الفردية وعدم النظر إلى من حولي، لو أنني فعلت ذلك لشعرت أن حياتي تسير كسيرها في القرية... ولكنني وجدت غير ذلك، وجدت هذا الإنسان البارد الذي تغير كليًا بفعل المدينة**"[٣٢]، ولعلَّ القارئ ليس في حاجة إلى اكتشاف المعنى في المقطع السابق عند الكاتب، لكن ما ينبغي النظر فيه هو تشابك الثنائيات الضدية وتداخلها ما بين المادة والروح من جانب، والقرية والمدينة من جانب آخر، الأمر الذي يعني أن الكاتب اتبع في سرديته المقارنة في المرجعية من ناحية ذهنية بدرجة عالية، وهو ما خفف من اللغة الإبداعية الأدبية في المبنى دون المعنى، فإن القارئ للرواية لا يلاحظ –مثلًا– اللغة التصويرية، أو اللغة الشاعرية، أو حتى الخيالية؛ بل تطغى على اللغة إعمال الذهن والفكر في سرد الرواية على شكل ثنائيات ضدية متداخلة ومتشابكة في الوقت عينه لسرد أحداث الرواية.

(٣١) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٢٩.

(٣٢) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٣٠.

ومما يعزِّزُ تداخل الثنائيات وتشابكها في حبكة السرد عند المؤلف، حديثه عما يبقى بعد موت الإنسان وأثر ذلك في أقاربه، يقول: "**في زمن القرية عندما يموت الميت يقولون رحمه الله أبا فلان فقد ربَّى أبناءه أحسن تربية وعلمهم التقوى وأصول دينهم، وهذبهم ورباهم على حسن الخلق، أخرج رجالًا يفتخر بهم. كان نعم الرجل لم نسمع منه سوى كل خير يحترم الكبير ويعطف على الصغير ويقدم خدماته دون أن ينتظر من أحد ما يقابله، وكل أهل القرية يبكونه. في زمن المدينة تحولت النغمة إذ أصبح الناس يقولون رحمه الله... ترك لورثته ملايين الريالات، أو ترك لهم الهم والفقر. والله إنه نعم الرجل... ثم يردفون بقولهم: ولكن النار ما تخلف إلا رماد يقولون هذا وهم مازالوا على قبره يتباكون**"[٣٣]، في هذا النص تتجلى الثنائيات الضدية باختلاف مرجعياتها، بداية بين القرية والمدينة، ثم بين الفقر والغنى، ثم بين التربية الأخلاقية وغير الأخلاقية، وقد عزَّز الكاتب المقطع السابق بروافد من الأمثلة الشعبية، والذي يمثل المحكي والدارج على ألسنة العامة من الناس (النار ما تخلف إلا رماد)؛ ليؤيّد ما ذهب إليه من قول ويصبغها بالواقع أكثر منه في التخييل.

إنَّ المتتبع لأحداث رواية "سقف القرية، قاع المدينة" يجد أن الكاتب يسرد بواقعية أثر المال على الإنسان في العصر الحديث، وأن المال أصبح المعيار الحقيقي لوجود الإنسان وقيمته، وليست للأخلاق والقيم والأعراف وكل ما يتصل بالجانب المعنوي والروحي له، وقد ربط الكاتب هذا التصور بناء على طبيعة مكان الإنسان وتواجده، ومن الأمثلة في الرواية على ذلك، قوله: "**لا يوجد في المدينة كجدة سوى (الفلوس)...، لم يتجه فكري يومذاك باتجاه البعد الذي ترمز إليه، اتخذت هذه الكلمة (الفلوس) على ماديتها،...، للحقيقة. إنك تستطيع في مدينة جدة أن تصبح غنيًا حتى لو وضعت هواء في قوارير وجلست تبيعه على المارة سيشترونه وهم يضحكون. هذه المدينة لا يشغلها سوى بيع الوهم للناس، ولا يحركها سوى اعتقاد الناس فيها أن الحياة لا تقوم إلا بالريال، ولن تحترمك إن لم تكن من أهل الريال. لن تحترمك لمجرد أنك محترم، لا يتدخل في شؤون الآخرين،...، بل تريد منك لغة واحدة هي لغة الريال فقط**"[٣٤]

لقد بيَّن المؤلف أبعاد المادَّة في دلالاتها الثقافية، بوصفها ثنائية ضدية في مقابل الجوانب الروحية للإنسان، وهو ما يعكس وعي المؤلف أثناء ممارسته سرديته الكتابية، وما تحمله من حقول دلالييه تختلف باختلاف

(٣٣) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٤٨-٤٩.

(٣٤) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٤٨.

همومه الفكرية لمجتمعه. ومن هنا فقد جسَّدت الرواية عند كاتبها أثر الثقافة المادية التي طغت على الفكر الجمعي في النصوص السردية بأنساقها المختلفة من خلال رؤية الكاتب الذاتية والموضوعية؛ فاستطاع أن يكشف عن قدرته الكتابية وثقافته الخاصة، وما يأمل إيصاله للمتلقي من أجل أن يتحقق.

ويُعدُّ الحوار عنصراً ضروريا لدراسة صيغ الخطاب المسرود، ذلك أنه متحرك ضمن أحداث متنامية؛ ليكشف عن أحوال الشخصيات وسماتها الخاصة ومواقفها. والحوار "نمط تواصلي؛ حيث يتبادل ويتعاقب الأشخاص على الإرسال والتلقي"[٣٥]، وهو أيضاً من أهم أساليب القص إلى جانب السرد والوصف، وموطناً من مواطن تعدد الأصوات، وينهض بوظائف متعددة، كالإخبار ورسم معالم الشخصيات والإيهام بالواقع[٣٦]. وإذا اتجهنا إلى رواية "سقف القرية، قاع المدينة" لكاتبنا وجدنا بوضوح تجلي أشكال الحوار وأنواعه في الجنازة الثالثة تحديدًا (أبو سعد) وهو ما لا نجده في الجنازتين الأولى والثانية، ولا غرابة في ذلك؛ إذ إن الحوار يخضع لسلطان التأثير المباشر من قبل الراوي، ولمقتضيات التخاطب الثنائي والحيوي؛ لأن تقنية الحوار الداخلي والخارجي في بعض المواقف كشفت عن إشكالية المرجع في ثنائيته الضدية عند الجثة الثالثة؛ لأن أسلوب الحوار كشف عن الأثر السلبي على نفسية الراوي البطل وخيبة أمله بتحول أهالي القرية عن قيمهم ومبادئهم بفعل المادة/ المال، كما أن المؤلف لم يتدخل في حركة الشخصيات المتحاورة كالتفسير والتبرير ومحاول إقناع المتلقي، أو حتى المشاركة في السرد، الأمر الذي لا نجده في كثير من مواطن الرواية، إنما اكتفى بالردود الشخصية المباشرة، أو بالمونولوج الداخلي أو فلنقل أحاديث النفس الداخلية بناء على الحوار الذي أجراه بين شخصيات القرية، وبيان أطماعهم، واختلاف الورثة على الإرث، يقول على لسان شخصية صديق له التقاه في القرية:

- **يقولون إن أولاد (أبو سعد) كل واحد بيطلع له (ثمنطعشر مليون) صحيح؟**
- **ما أدري والله؟**
- **...**
- **تسع... ما شاء الله. يعني كل بنت يطلع لها تسعة ملايين.**

ثم سكت قليلًا... وأردف:

- **آه... يا حسرة... وجوهنا أنا وأنت وجوه فقر... قل ليش ما تزوجنا أنا وأنت من بناته؟**

(٣٥) علوش، سعيد، **معجم المصطلحات الأدبية**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٧٨.

(٣٦) ينظر: القاضي محمد، وآخرون، **معجم السرديات**، ص ١٥٨- ١٥٩.

- **كل واحد ما يأخذ إلا نصيبه في هذه الدنيا (واللي كاتبه ربنا هو اللي بيصير).**
- ...
- **اللهم لك الحمد والشكر... ذنب وترث (تسعة ملايين** ريال**، وأنت شنب ولحية محتاس في حياتك).**

هذا الحوار مع صديق المراهقة أصابني في خاصرتي، وجعلني أتمتم وأنا في طريقي إلى منزل الميت. شعرت بحنق على حياتنا. هذا الصديق الذي لم يخرج من القرية، ولم ينغمس في حياة المدينة يتحدث بهذه اللهجة المادية الصرفية.

لا. ليست المشكلة في المكان الذي تعيش فيه، ولكنها في المؤثرات التي تحيط بك." [٣٧].

ظهرت الصدمة على شخصية الراوي/ البطل بناء على الحوار الذي دار بينه وبين صديقه القروي الذي لم يخرج من القرية منذ ولادته، والذي أبان فيه أطماع صديقه وجشعه في مال الورثة، الأمر الذي سبب صدمة نفسية للراوي، وجعله يتخلى عن بعض قناعاته السردية المعلنة في الرواية انطلاقًا من إعطاء الأفضلية للقرية على حساب المدينة في العنوان، مرورًا بالجنازة الأولى، والثانية، حتى في الجنازة الثالثة التي أوصت بالدفن في القرية عند موتها، بيد أن الراوي صُدِمَ في حواره مع صديقه؛ لأنه تحوَّل وتغيَّر كأبناء المدن، فالتحول والتغير طال أبناء القرية، والذي كان منوطًا بالمدينة وسكانيها في نظر المؤلف في جنائزه الأولى، فالأمر مختلف تمامًا الآن، فالتغير أصبح سمة بارزة للمجتمعات في المدن والقرى سواء، فتحولوا إلى مجتمع مادي لا يبحث سوى عن المال بالدرجة الأولى، ولا يكترث للجوانب الروحية التي طالما تغنى بها الكاتب على لسان شخصياته التي تعلي من شأن القرية، ولهذا نجح الكاتب في تكريس فعل التغيير والتحول الذي امتد إلى القرى، ومما يلفت الانتباه أن المرجعية في هذا المقام لم تعد ثنائية بل أصبحت أحادية المرجع، ففي سردية الجنازتين الأولى والثانية طالما أشرك الكاتب الثنائيات الضدية واختلاف المرجعية للتقابل والتباين معًا، إلا أنه في هذا المقام جعل المرجعية واحدة في طغيان المادة كمرجعية ثابتة، إلا أن ثنائية القرية والمدينة تساوت أو فلنقل لم تعد الأفضلية للقرية على حساب المدينة.

وقد تكرر مثل هذا الإلغاء لثنائية المدينة والقرية، والإبقاء على ثبات مرجعية المادة في غير موضع من أحداث الجثة الثالثة فقط، من ذلك استماع الراوي إلى حوار في المقبرة لدفن الميت، والذي دار بين شخصيات القرية، يقول:" **في المقبرة وجدنا حول القبر ما يقارب مائة رجل فضلًا عمن صلَّى عليه**

(٣٧) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٦٨.

معنا...، لمحت قبر جدتي فتذكرت أن عدد الذين كانوا على قبرها لا يصلون إلى الخمسين...، لأنني سمعت الحوار التالي:

- **قولك ترى الرجال عنده مجموعة أراضٍ في جدة، وأولاده بيبيعونها... فتّح عينك لا يخطفها الرجال قبلك.**
- **لآ. ما يهمك... ترى اتفقت مع ولده عبد الرحمن وسيرتب لي الموضوع.**
- **اسمع اضرب الحديد وهو حامي... الأشهر الجايه لا تغادر من عندهم إلا بشيء.**
- **اطّمن . أنت خليك جاهز.**
- **ما عليك أنا جاهز من المليون إلى العشرة**
- **...**

يهيلون التراب على قبره ويتآمرون على أولاده، استغفرت ربي ودعوت للميت بالثبات. ثم تحركت من مكاني علني لا أسمع كلامًا آخر.

...

- **يقولون أن الخبر وصل ولده الصغير وهو سكران... فقام يرقص من الفرحة. ويقول لمن معه في شقة مستأجرينها يسكرون ويعربدون فيها... خلاص بنلعب بالفلوس لعب. هاااه أنا الريّس هنا. ويقولون أن كل اللي في السهرة معه صفقوا له وحملوه على أكتافهم.**
- **لا. لآ... أسمع أزيدك من الشعر بيت... يقولون إن ولده الأوسط.**
- **مين تقصد فهد؟**
- **ما أعرف اسمه.**
- **ايوه. ايوه اسلم**
- **يقولون إنه قال لمرته يوم جاه خبر وفاة أبوه... خلاص جانا الفرج.**

....

- **قالت يقولون إن سميّة – البنت الكبرى للفقيد– قامت ترقص يوم مات... تصدق!**
- **عليّ الطلاق إن مرتي تقول إن بنت بن نيزان، وتعرف هي بنت خالتها، إنها كانت موجودة يوم جاهم الخبر، وإنها قامت ترقص.**
- **ياخي خل حكي النسوان....**

.....

- **يقولون إنه بنى ثروته بعد ما سرق أموال خاله في أول الزمان**
- **صدق والله سمعت هذا الكلام.**
- **ويقولون إن خاله –الله يرحمه– مامات إلا من القهر بعدما أخذ كل ما جمعه.**
- **لا ياخي خاله –الله يرحمه– مات في السيل وهي حادثة معروفة ومشهورة.**
- **مين قالك يابن الحلال...علي الطلاق ما مات إلا من القهر وأنا أعلّمك بالسالفة مزبوط**
- **خلنا من هذي السالفة... لكن قل لي في هذولا الأولاد اللي يقولون إنهم تضاربوا البارح علشان الإرث**"(٣٨).

شكَّلَ هذا الحوار الطويل أصواتًا متعددة لطبقات من مجتمع القرية، ولعله بمنزلة الانصراف السردي الذي يكشف المضامين السردية بموضوعاتها المختلفة في المرجع؛ حيث سمح المؤلف لشخصيات القرية عن أن تعبر عن مرجعياتها بطريقة ضمنية تكشف عن علاقتها الواضحة بالمرجع المادي، وقد أتاح أسلوب الحوار –عند المؤلف دون التدخل منه كراوي – نفي تهمة الانحياز العاطفي مع أحد الأصوات السردية ذات المدلولات الإيديولوجية، ولا يحصل ذلك إلّا بترتيب وجه من وجوه العلاقات بين الشخصيات والأحوال والمصائر؛ لأن الحوارات المختلفة تصنع عنصرًا من عناصر البناء الدلالي والفني للعالم الأدبي(٣٩).

لقد أظهر الكاتب بجدارة مرجعية الموت في الجنازة الثالث، والتي تسببت في كشف حال مجتمع القرية نحو الورثة وتباينهم، حيث ظهر الطمع والجشع من قبل بعض أفراد المجتمع القروي نحو الثروة التي تركها الأب وراءه، وقد عبَّر الكاتب عن هذا التحول في سلوك الناس وانهيار منظومة القيم والمبادئ الإنسانية في المجتمع القروي، الأمر الذي تسبب في صدمة نفسيه للراوي، وكان مصدر خيبة وحزن على نفسيته.

أدى الحوار فاعليته في المقطع السابق كما ذكرنا، كما أن توظيف اللهجة العامية الدارجة في الحوار يقرب الصلة بين الروائي وشخصياته، بل إنه يحمّل السرد إلى الأجواء الواقعية التي نلمس فيها العلاقة بين الناس. ولعل هذا الحضور أيضًا يؤكد وعي الروائي بأهمية اللهجة العامية وتوظيفها في الحوار؛ لتكون أكثر واقعية وقربًا من المتلقي اجتماعيًا وثقافيًا.

(٣٨) الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ص٧٣– ٧٤–٧٥–٧٦– ٧٧– .

(٣٩) ينظر: الكردي، عبد الرحيم، **الراوي والنص القصصي**، ط٢، دار النشر للجامعات، (د.م)، ١٩٩٦م، ص ٧٧.

وإذا وصلت أول كلامي بآخره في هذا المبحث، قلت: إن الكاتب خلق من ثنائية الروح والمادة في مرجعيتها الاقتصادية والتحول في مدن المملكة العربية السعودية أيقونه مرجعية لتحول الإنسان مع جملة التحولات التي أصابت القرى والمدن، كمؤشر على تخلي الإنسان عن قيمه ومبادئه، مثل ما مرَّ معنا في استغلال المستشفى للإنسان من أجل المال. وأتاح الحوار بشقيه الداخلي والخارجي عند المؤلف المجال لشخصيات الرواية المتحاورة في الكشف عن مرجعيات الثنائيات الضدية ولا سيما طغيان المال وطمع الإنسان في الحصول عليه، وهو ما نجده في الحوارات المبثوثة للجنازة الثالثة على وجه التحديد؛ لتكشف عن خيبة أمل الراوي/ المؤلف بأن التغيير والتحول قد طال أهالي القرية، كون المكان القروي بدا مقدَّسًا في سردية الراوية، وهو ما نستشعره من عنوانها.

الخاتمة:

بعد هذا التطواف في جنبات الرواية خرجت الدراسة بمجموعة من النتائج، كان من أهمها:

أولًا: قامت الرواية على سرديَّة الجنائز كموضوع رئيس ومختلف عن سائر موضوعات الرواية المتعارف عليها.

ثانيًا: شكلت الثنائيات الضدية بمرجعياتها المختلفة أحداث الرواية، كما عملت المقارنات الضدية على إبراز جوانب الخير والشر بين ضديات المرجع.

ثالثًا: تراوح أسلوب الكاتب في الرواية بين الذاتي الذي يمتح أحداث روايته من الذاكرة التاريخية، والموضوعي الذي يحيل إلى مرجع واقعي تسجيلي.

رابعًا: طغى على أسلوب الراوي الجانب التفسيري لكثير من سرديات الجنائز دون أن يسمح للقارئ بالتلقي أو المشاركة في إنتاج دلالة النص، ما يفهم منه في بعض الأحيان السلبية على الرواية.

خامسًا: استخدم الكاتب أسلوب الحوار واللهجة العامية كتقنيتين سرديتين في الرواية، ولا سيما الجنازة الثالثة، أما ما سبقها فقد طغى أسلوب السرد الذاتي على أحداث الرواية وأعمال الذهن في تفسير أحداثها.

سادسًا: تمثل الرواية في إطارها العام وثيقة تسجيلية لتاريخ التحول والتطور الذي مرَّ بالمجتمعات والمدن في المملكة العربية السعودية في حقبة زمنية مضت.

وتوصي الدراسة بتأمل النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ودراسته، وخصوصا الروايات على اختلاف مرجعياتها في السرد؛ لأنها تتناول الواقع الاجتماعي، وتسجل تاريخه بأحداثه المتعددة والمتباينة في الوقت نفسه؛ لتكشف عن الآثار السلبية التي خلفتها سردية الأحداث على المجتمعات، ومحاولة تجنبها لاحقًا.

قائمة المصادر والمراجع:

- بارت، رولان، **الدرجة الصفر للكتابة**، ت: سلوى العوتلي، وعبد الدايم السلامي، (د.ط)، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٨م.
- بنخود، نور الدين، **الدراسات التخصصية والبينية**، ط١، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠١٧م.
- بنيس، محمد، **الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاته**، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
- بوطيف، عبد العالي، **الهندسة ومعمارية النص**، ضمن الكتاب الجماعي: الخطاب القصصي وسائر الخطابات والفنون، ط١، دار ورقة للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون، منوبة، ٢٠٢٢م.
- حميداني حميد، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- الخبو، محمد:
  - **مدخل إلى بوليفية السرد الروائي**، ضمن الكتاب الجماعي: الخطاب القصصي وسائر الخطابات والفنون، ط١، دار ورقة للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون، منوبة، ٢٠٢٢م.
  - **مدخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية**، ط١، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠٠٦م.
- سوسير، فرنان دي، **علم اللغة**، ت: يوئيل، يوسف عزيز، بيت الموصل، بغداد، (د.ط)، ١٩٨٨م.
- عبيد، محمد صابر، **التجربة والعلامة القصصية**، ط١، عالم الكتب الحديثة، إربد، ٢٠١١م.
- العتيبي، طنف، الخطاب على الخطاب: قراءة إنشائية في رواية القارورة ليوسف المحيميد، **مجلة جامعة بيشة للعلوم الإنسانية**، ع:٤، ٢٠٢٤م.
- علوش، سعيد، **معجم المصطلحات الأدبية**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م.

- الغامدي، محمد عبد الله، **رواية: سقف القرية، قاع المدينة**، ط١، دار الانتشار العربي/ النادي الأدبي الثقافي الأدبي بمنطقة الباحة، بيروت/ الباحة، ٢٠٢٣م.
- القاضي محمد، وآخرون، **معجم السرديات**، ط١، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، ٢٠١٠م.
- قسومة الصادق، **علم السرد المحتوى والخطاب والدلالة**، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠/٢٠٠٩م.
- قطوس، بسام، **سيمياء العنوان**، ط١، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١م.
- الكردي، عبد الرحيم، **الراوي والنص القصصي**، ط٢، دار النشر للجامعات، (د.م)، ١٩٩٦م.